

خـجـرة

للدكتور محمد عوض محمد

أشهد ان الطبيعة قد تمنح ، فتسرف في المنح ، وتعطي
فجزل العطاء وتنسى نفسها أحيانا ، فتكيل السعادة لمن
رضيت عنه بمكيال هائل ، وتبذر منقطع النظر . وكان ذلك
شأنها يوم أفرغت على الرجل العجيب (أنطون سو كيلوف)
أسجال الهبات : بأن منحه تلك الخجرة الثمينة الرائعة
أجل وان المرء لتأخذ الدهشة عن يمينه وشماله ، ومن
ورائه زأمانه ، ومن فوقه ومن تحته ، حين يفكر في الوسائل
المختلفة العديدة ، التي تتوصل بها الآلهة ، لكي ترفع من تحبه
على الناس درجات ، وتخلق به في ملكوت السموات : - ترضى
عن هذا فتمنحه المال عن وفر وعن سعة ، وتحب هذه
فتكسوها أنواب الجمال : ثوبانوق ثوب - ثوبا ورق الكرنب ويحلو
للآلهة ان تنعم على ذلك فاذا هو ذوجه عريض طويل ، عميق غليظ .
ولكن أغرب شيء تهبه الآلهة هو من غير شك - تلك
الميزات الجسدية : تلك القطع من اللحم والعظم والغضروف
والجلد - يجرى فيها الدم أحيانا ؛ وأحيانا لا يرى فيها دم
مطلقا . وطورا يكسوها الشعر ، وكثيرا ما تكون صلعات
جارية من الشعر - تلك الاجزاء الجثمانية : التي يحسبها الجبال
من مصادقات الولادة ، أو من غلطات الولادة ، وفي الواقع
وفي الحق هي السر البائع الذي يحرك الفلك ، وتدور له الكرة
الارضية من الغرب الى الشرق .

وما على الذي يشك في صحة هذه الدعوى ، او يريد ان
يتهمنا بالغلو والمبالغة ، إلا ان يلقي نظرة يسيرة على التاريخ
المكتوب وغير المكتوب ، ويكفى ان يلقي النظرة على عجل
وهو مغمض العينين ، ليرى كم من صلعة لامعة قد ساست
الممالك ، ودوخت الجيوش ، وكم من ذقن غليظ استطاع
اخضاع الاقطار وتسخير كل جبار . وهانحن نسوق للقارى .
أمثلة لا تحتمل الشك أو الإنكار .

هذه كيلو باطره ١ بأى سلاح وبأية قوة استطاعت ان
تخضع يوليوس قيصر ، وتلفه حول إصبعها الخنصر ؛ بألقنايل
والأساطيل ؛ أما بالجيوش والدبابات ؛ أم بالغازات الخائفة
وغير الخائفة ؟ لانهذى - لعمرك - ولا بتلك . بل بقطعة
أنف مستدق مستطيل : خارت أمامها عزمة العاهل الرومانى
الهائل ، الذى فتح الغال وبلاد الاسبان واستولى حتى على
بريطانيا العظمى - التي لم تكن عظمى في ذلك الوقت .

ثم شمشون : الجبار شمشون ، الذى استطاع أن يقتل ألفا
من الفليستيين وما بيده سلاح سوى عظمة الفك الاسفل
لحمار تفق حديثا ، والذى استطاع أن يقبض على العمودين
الذين يسكان الهيكل الأكبر - وقد احتشد فيه أعداؤه
آلافا مؤلفة - أمسك عمودا باليمين ، وعمودا بالشمال ، ثم مال
بالعمودين وهو يقول : « على وعليهم يارب ! » فاذا الهيكل
يتداعى والسقف ينقض بمن عليه ، والبناء يندك بمن فيه . واذا
الآلاف المؤلفة تقبر ، بما فيهم دليلة الخاتمة المماكرة !

ألا رحم الله شمشون ! أتى جأته كل هذه القوة وهذا
الجبروت ؟ ذلك هو السر الخطير ، الذى أدلى به الى دليلة
الخاتمة ، حين أنبأها أن قواه كلها كامنة في تلك الشعرات التي
نبئت في رأسه كما تبث الاشعة في رأس الشمس .

وهكذا كان عضو بسيط من أعضاء الجسم سببا في تحويل
سطح الارض ، وفي قلب مجرى التاريخ ...

اذن لماذا نعجب من أن الآلهة حينما ارادت أن تفقد
النعم على (أنطون) لم تزد على أن وهبت خجرة ؟ لم تهبه مالا
ولا عقلا ، ولا ذكاه ولا فهما ، ولا طرانا عسا ، ولا وجها
وسما . بل كل ما منحه وحبته به : خجرة .

•••

نفس عصام سودت عصاما
وعلته السكر والاقداما
وصيرته ملكا هماما

تنبىء الساكنين على ضفاف السين . أن على ضفاف التامير رجالا .

وأدرك رئيس المحافظين -- ويا برعان ما أدرك ! -- أى كنز قد ظفر به ، وأى ذخيرة ثمين قد قدمته الآلهة له ولحزبه ! انهم بفضل هذه الحنجرة الرعدية لن يلبثوا طويلا حتى يتربعوا على دست الحكم ، ويتحكموا فى الدولة التى لا تغرب عليها الشمس .

ولم يبرح أنطون مجلس الرئيس إلا وقد حمل فى صدره - وفى جيبه - ألف دليل على أن نجم نحسه قد أودع بطن الثرى وأن نجم سعده قد أشرق فى السماء لامعا صاعدا .

كان أنطون من رعايا الروس ، وقد حاول السنين الطوال أن ينال الجنسية البريطانية ، فلم تلق جهوده الا الفشل . ان الجنسية البريطانية أجل وأمن من أن تمنح للصعاليك أمثاله . أما اليوم فقد جاءت تلك الجنسية تجرأ أذيالها ، وهى تمتشى على استحياء ، تزالت عليه من المحل الأرفع من بعد طول تعزُّزٍ وتمنُّعٍ ،

وقد فتحت بين يديه نوادى المحافظين ، المفرطين فى ارستقراطيتهم ، وفى عزلتهم . فجعل ينشادهم وحنجرتهم التى كان صداها يدوى فى تلك الحجرات الهائلة ، فتدلى بها الأذان وتميل نحوها الاعناق .

ولم تمض أسابيع قلائل حتى أخلبت له دائرة من دوائر البرلمان ، وحتى أقسم عين الطاعة للملك ولدستور الدولة العظمى التى قلبا اترب الشمس عليها .

هنالك بدأت معجزته الهائلة تفرغ الاسماع ، وتأتى بكل إبداع ، يوم تبوأ مقعده فى (ويستمنستر) وقد لف على الحنجرة العزيزة كوفية من الدمقس الخالص ، برأبها ، وعطفاً عليها . وهى بهذا العمرى جديرة بعد أن أصبحت ينبوع ثورة ، وبهبة قوة وصوله ، رعياد حزب ودولة .

هذا جاز فى عصام المذكور . اما (أنطون سو كيلوف) فلم تكن له نفس تستحق الذكر ، ولم يكن شجاعا ولا هماما ولا يعرف كرا ولا إقداما . ولم يكن صاحب علم ولا جاه ، بل صاحب حنجرة خشب . يملكها وتمسكها ، وليس له من حطام الدنيا شئ سواه ، وليس لها من حطام الدنيا شئ سواه وكانت هى سر سعادته ؛ واستطاع هو أيضا أن يجعلها سعيدة مُنَعَّمَةً .

ليس على فضل الآله من حرج
ان شاء ضاق الأمر ، أو شاء انفرج
ويدرك العلية من به عرج
وترتقى حنجرة أعلى الدرج !!

ان سر النجاح فى الحياة هو ما قاله سقراط : ان تعرف نفسك . وهكذا فعل أنطون . فقد خلا الى نفسه يوما ، وجعل يجهد فكره الكليل فى معرفتها ، وفى الكشف عن أمرها . لعله ان يرى فى ركن من أركانها كنزا مخبئها ، أو قوة مدفونة . فهداه طول التفكير ، والتدبير الكثير ، الى ان له حنجرة ليس لها فى العالم نظير . أجل وانها لجديرة بأن ترفعه ويرفعها الى المقام الاسمى والسمك الاعلى . وان ينفض بواسطتها غبار الفاقة الذى يوشك ان يقبره ويتهربها . وكانت ساعة الإلهام أدرك فيها أنطون أن برلمان انكلترة -- أبو البرلمانات جميعا -- هو ميدانه الوحيد وميدان حنجرته العزيزة . . . عجبا كيف لم يرقى الى هذا الكشف الهائل من قبل ، فيقضى على عيش الضنك والفقر الذى لازمه طوال هذه السنين ؟

وفى مساء ذلك اليوم الخطير كان أنطون جالسا . وحنجرتهم الى رئيس (المحافظين) يتحدث حديثا شائقا طليا . والصوت يدوى من حنجرته دويا -- ولولا أن الريح فى ذلك المساء كانت تهب من الجنوب ، لسمع أهل فرنسا صدى تلك الحنجرة